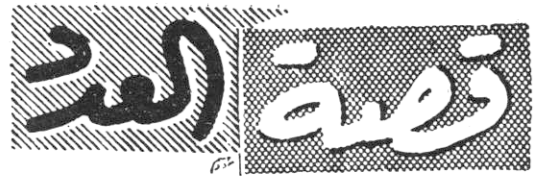

مدينة الأحـــلام

اعتدت مساء كل خميس زيارة صديقى مروان حيث آنس بحديثه . وأرتاح لمجالسه ، لتقارب فى الآراء وتشابه فى المشارب ، ذهبت إليه كعادتى ، فما رأيته حتى أنكرت حاله . فسألته ، أحدث شىء بلبل خواطرك؟ فأجابنى مروان بقوله : كلا ، وإنما سوانح دهمتنى حيث كنت جالسا فى الحديقة ، أفكر فيما حولى من رذاذ الحياة الاجتماعية وفى السحب الكثيفة التى تظلل سماءها ومن أجل ذاك أشعر بتوزع فى الفكر .

وما كاد مروان يصل فى حديثه إلى هذا . حتى استلقى على كرسيه . وأطرق برأسه ، فصمت بدورى وأخذت أنظر فى كتاب يصحبنى ، وقد راقتنى بعض فصوله ، واستهوتنى قراءتها مدة ، فما قضيت منها حتى التفت إلى صديقى ـ وكنت غفلت عنه ـ فوجدته يغط فى نومه ، فرأيت أن أنصرف عنه ، ليأخذ راحته ، أيقظته وأنا أهم بالانصراف ، وسرعان ما أخذنى الابتسام حينما فتح عينيه وقال : إلى أين يا أخى . فقلت : إلى البيت حتى تنام ، فلعل ما يثقل رأسك من هم يزول فأجاب مروان لبثت قليلا ، ففى هذه الغفوة منى عنى وليتنى بقيت نائما ، اجلس لأقص عليك الحلم الذى كشف عن نفسى غمتها .

فقلت له لك ما تريد يا صاح ، وهات ما عندك . فقال مروان : رأيت نفسى أدخل مدينة لا عهد لى بها ، وقد راعنى ما تحويه من أبنية أنيقة ، وشوارع منسقة ورياض أندلسية ، إن دلت على شىء فانما تدل على مقدار حضارة شعبها وعلو كعبه فى الفن والعلم ، أخذت يا أخى أسير فى شوارعها مذهولا حائراً من تلك المظاهر وأولئك الناس الذين لم أسمع منهم منكرا من القول وزورا ، يغدون إلى أعمالهم ويتعاطون حوائجهم فى هدوء ونظام . وبشاشة وعذوبة ألفاظ . وكنت كلما وقع بصرى على شىء من هذه المفاتن أو استمعت إلى أحاديث أولئك الناس . رددت هذا القول « أى شعب هذا ، فلولا رؤيا العين لقلت إنها بلد من بلدان العرب الغابرين أيام العصر العباسى الزاهر . أو أيام عظمة بنى أمية . لكن أنى ذلك وقد طواهم الزمن وأصبحوا كأن لم يغنوا بالامس » .

كنت يا أخى أردد فى نفسى مثل هذا القول . بين الحين والحين . وخاصة عندما تقدمت إلى بائع لأشترى منه زادا ، بالله إنه يجيبنى عند ما ساومته ، نحن قوم لا نبيع ديننا بدنيانا . نحن قوم قانون معاملتنا قول رسولنا الكريم « من غشنا فليس منا » إزداد عجبى حينما سمعته يقول هذا — ولكن قلت فى نفسى — أيكون هذا ونحن فى زمن المسلمون فيه نبذوا أحكام كتابهم وراءهم ظهريا ، وابتعدوا عن أخلاق أجدادهم الأولين ، إن هذه البقية ممن يخافون ربهم . فهو شاذ فى نشأته . والشاذ لا حكم له .

تركته يا أخى وانصرفت إلى غيره ، وغيره ، وغيره فما سمعت إلا كلاما فى معنى ذلك القول وإن اختلف مبناه . وأخيراً أخذت ما أريد وقلت فى نفسى « لولا رؤيا العين وسماع الأذن لقلت : إن هؤلاء من المسلمين الذين عمرت قلوبهم بالإيمان . والذين وصفهم الله بقوله « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »

سرت فى شارع ، وأنا أقلب مثل هذه الخواطر حتى طرق سمعى صوت المؤذن ، فدلفت إلى مسجد قريب منى رأيت جموع الناس تؤمه ، أتيته فألقيته يفيض بالمصلين . آه يا أخى ليتك تركتنى نائما ، لأعيش ولو ساعة فى دنيا الأخلاق ، وفى مدينة العلم وإن كانت مدينة الأحلام .

صليت مع المصلين . وبعد الانتهاء من الصلاة .

جلس شيخ وقور ، تدل ملامحه على تقواه وعلمه . وأخذ يعظ الناس . وقد جعل وعظه يدور حول قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون »

أى كلام قاله ذلك الشيخ ، إنه لقول مورق . له حلاوة وعليه طلاوة . لم أعهدها فى كلام سمعته . وإنه لا يحضرنى منه يا صديق إلا شيء أنقله إليك فى معناه ، لا بلفظه . فقد سمعته يقول : المسلمون من صغيرهم إلى كبيرهم ، ومن الحاكم إلى المحكوم مأمورون باعداد القوة الحربية مهما اختلفت وتنوعت ، والقوة كما إنها مصدر للشر ، مصدر للخير أيضا . لأن كثيرا من الأمم لا تفهم إلا لغتها . ولا تحد من مطامعها إلا إذا رأتها ، والآية كما أنها تأمر صراحة بالاستعداد الحربى . فانها تأمر بالاستعداد المعنوى أيضا . أمرها عام وكل قدر استطاعته وضمن جهوده ، وإنها تدعو المسلمين أن يجعلوا سياج ممالكهم القوة . وحصونها العلم والمال . لأنه ما اجتمع المال والعلم فى أمة إلا أنتجا القوة والمهابة . وهذا أسلوب الحياة . فمهما تقلبت الأحوال ، واختلفت الدهور . وما هبت ريح للأعداء . ولا لاح فى الأفق ما ينذر بالشر إلا رأيت الأمة تعتصم بقوتها حسية كانت أو معنوية ، والاستعداد الحربى يقتضى تعليم العلوم التى توصلنا إلى تلك القوة والعدة

آه يا أخى ، ليتنى وعيت قوله جميعه لأنقله إليك ، فما يحضرنى منه إلا هذا . ولقد تركت المسجد بعد أن ترك الشيخ وعظه . على أن يعود إلى موضوعه فى اليوم التالى ، نعم خرجت من المسجد والأوهام تساورنى وأنا أسير فى شوارع هذه المدينة . وما أيقظنى من أوهامى إلا بعض جموع رأيتها تقف على طوار الشارع . وإذا برجل تبدو عليه المهابة وجلال المقام . يسير مع عدد . وقفت كغيرى ولما مر هذا الرجل سألت عنه أحد الواقفين فأجابنى بقوله : ذلك أمير المؤمنين — لقد أنكرت منه هذا القول وظننته يسخر — فقلت له ماذا تقول يا هذا . فهل للمؤمنين اليوم أمير كما كانوا — وكما أنكرت عليه قوله أنكر بدوره قولى هذا — فأخذ يثبت بصره فى وأطال فى ذلك . ثم قال نعم . للمؤمنين أمير ويظهر من ملامحك — وإن كان لباسك كلباسنا — إنك غريب عن هذه الديار .

لم يزد على هذا وانصرف عنى . فبقيت ذاهلا . لا أعى شيئا ممن حولى . ولا أدرى ما أفعل ، وأخذ يتردد فى ذهنى وأنى يكون للمسلمين أمير . وأوصالهم ممزقة . وديانتهم تكاد لا أثار لها . وهم فى كل ربع مروعون » سرت فى طريقى ولم يمض وقت حتى رأيت الشخص ذاته . يعود ثانية . فأردت التأكد مرة أخرى فسألت واحداً فأجابنى هذا أمير المؤمنين ومضى لشأنه

تكاثرت على الخواطر . وأصبت بوجوم شديد ، وكنت أسير على غير هدى . وما زال شأنى هذا حتى وجدتنى أقف بجانب قصر له رواء يبهر العين ، أتيت بابه فاذا فى ساحته جماعة يتوسطهم ذلك الرجل العظيم . ولبعد المسافة لم أستطع أن أتبين أحاديثهم ، لكنها أشبه بأحاديث اناس فى مناظرات . ومجادلات علمية . وبينا أنا واقف على هذه الحال مر بى رجل فسألته عن هذا القصر ؟ ومن هؤلاء الجالسون فى الفناء . فأجابنى الرجل . هذا قصر لأمير المؤمنين وهؤلاء علماء وأدباء يتناظرون أمامه حيث اعتاد الأمير عصر كل يوم من مثل يومنا هذا إقامة مثل هذه المجادلات والحلقات العلمية الأدبية .

وما أنهى الرجل قوله هذا حتى قال أراك تضحك وتمعن فيه . وأنا أخبرتك عما سألت . فما الذى دعاك إلى هذا ؟

فقلت له : يا أخى أين نحن من حقيقة الحال وأمر الواقع إن ما ذكرته نسخ بنسخ الزمن ، فأينا يضحك من الآخر ، ولم أتم جملتى حتى رأيت عينيه تتقلبان فى أم رأسه جمرتين وقال — وهو يتميز من الغيظ ويزبد ويحك ماذا تقول ؟ أبك مس من الشيطان ؟ أتنكر الحقيقة المجردة ؟ كيف تنكر ما أقوله . وقصر الأمير أمامك ومجلسه معقود والمناظرات العلمية على أشدها .

(البقية على صفحة ٣٩)